السيكلوجية الحديثة

التحليل النفساني — مسمر وبرور

يعقوب فام

ثبت التحليل النفساني في عالم الطب . وانتقل منه الى دائرة السيكلوجية الحديثة على يد فرويد أبي التحليل النفساني بلا منازع

في النصف الاخير من القرن التاسع عشر كانت مدرسة نانسي ومدرسة باريس تعالجان الامراض العصبية وفي حوالي ذلك الوقت (سنة ١٨٧٠) اكتشف مسمر Mesmer التنويم المغناطيسي ، فأخذته المدرستان واستعملتاه في معالجة بعض الامراض العصبية مثل الهستريا والملانخوليا ، وقد تم لها بعض النجاح في هذا المضمار وذهب فرويد الى تينك المدرستين ليدرس وسائلهما في معالجة هذه الامراض

وفي ذلك الوقت أيضاً كان برور Breuer الطبيب النمسوي يطبق طرق نانسي وباريس على الحالات التي كان يعالجها ، وبالطبع لجأ الى التنويم المغناطيسي فيما لجأ اليه من الوسائل ، وذهب اليه فرويد ايضاً وأخذ يتلقى عليه ويعينه في معالجة تلك الحالات ، ولكن برور اكتشف شيئين غاية في الغرابة أحدهما اصبح حجر الزاوية في التحليل النفساني والثاني غير وسائله وطرقه كل التغير وكان من شأنه ان برور نفسه أعفى نفسه من الموضوع كله وأقام حاجزاً متيناً بينه وبين هذا الضرب من العلاج

***

اكتشف برور اولاً ان المريض بمرض عصبي يشفى من تلقاء نفسه اذا ما ترك ليقص ما يضايقه على الطبيب ، وبعبارة اخرى اترك المريض في حالة راحة وطمأنينة ، واطلق له العنان ليتحدث فيقول كل ما يخطر بباله من الامور الخطيرة والتافهة ، العظيمة والسخيفة ، واغلب الظن انه يشفى مما هو مصاب به من الامراض العصبية . قد يسرد المريض ما يحب ويكره من الاطعمة والملابس وما أشبه ، وقد يروي لك احلامه التي تلازمه بعض الليالي ، وقد يحدثك عن بعض اختباراته في الطفولة ، وقد يشكو لك أخاه او امه او أباه ، وقد يمدحهم ويفرط في مدحهم او مدح بعضهم ، او قد يسرد عليك ما

يخالجه وهو يجلس أمامك ، او ما تثير زيارته لعيادتك من الخواطر والمشاعر النفسية . قد يفعل هذا او شيئاً يقرب او يبعد منه ، ولكنه سينطلق في الحديث عن كل حال وسوف يقع عليك شيئاً ما وفي جميع هذه الحالات سوف يفيد المريض من هذا الكلام ، وقد يشفى مما هو فيه وقد لا يعود اليه المرض مطلقاً

اكتشف برور هذا ، وهو كما نفهم أساس التحليل النفساني ، او هو التحليل بذاته ، وهو بذاته ما يطلبه كل طبيب نفسي من مريضه الى الآن ، لا بل لا يطلب الطبيب من المريض شيئاً غير هذا في جميع الحالات، وبالطبع فصّل فرويد هذه الطريقة تفصيلاً ووضع لها قواعد وحدوداً وغايات وأغراضاً ، ثم وضع لها نظريات ترتكز عليها وتحتمي فيها عند ما يناقشها العالم العلمي ، ومع كل ما عمله فرويد وأضافهُ اليها ما زال في أساسها عين الطريقة التي اكتشفها برور

ولكن برور وجد شيئاً آخر كان من آثاره ان قطع الصلة بين هذا الطبيب وتلك الطريقة ، وبعبارة اخرى اكتشف شيئاً مزعجاً له مربكاً قضى على كل صلة بينهُ وبين مواصلة البحث في طريقة التحليل النفساني كأساس لمعالجة الامراض العصبية

***

كانت الطريقة التي اتبعها هو وفرويد انهما اذا ما عرضت لهما حالة تستدعي العلاج بالتحليل النفساني ، ان ينوّما المريض ، ويطلبا اليهِ وهو في حالة الذهول هذه ان يروي لهما ما يعنّ لهُ من الخواطر والاحساسات والمشاعر قبيحها وجميلها . يروي كل هذه من غير حرج او تفكير في الآداب الاجتماعية او في قواعد السلوك والعرف ، ولكنهما اكتشفا انهما لم يكونا يستطيعان تنويم جميع المرضى، فان بعض الافراد لم يكن ليمكن تنويمه بأي حال من الاحوال . وبالطبع اذا استعصى التنويم على احد المرضى فقد استعصى العلاج على الطبيب ، لان من مستلزمات هذه الطريقة ان ينعدم كل نزوع او ارادة عند المريض في اثناء العلاج

كانت هذه صدمة كبيرة لبرور ولفرويد ، لانها لم تكن تعني الاّ الاخفاق المحقق الذريع يواجه الطبيبين ويسد عليهما المنافذ ويفسد عليهما عملهما ويضيع عليهما جهودهما ، ومع كل هذا لم تكن تلك هي الصدمة الوحيدة في هذه السبيل، وانما تتلوها اخرى واخرى بحيث قضت على برور ان ينسحب من هذا الميدان انسحاباً تامّاً

***

كان المريض عند ما يستعصي عليه النوم يظل مالكاً لجميع حواسه متقيداً بالعرف والاوضاع الاجتماعية بعيداً عن ان يستسلم للخواطر يتلوها كما تتوارد في نفسه من غير بحث او غربلة . فكان ينتقي منها ما يصح ان يذكرهُ من غير حرج ومن غير ان تتقزز نفسه لذكره ، واما ما كان يخجل منهُ او ما اصطلح الناس بينهم وبين أنفسهم على أن لا يذكروهُ للغير ، فهذا بالطبع كان المريض

يخفيها عن الطبيبين ويحاول ان يتملص او يهرب من ذكرها، وبالطبع كان من شأن هذا التصرف ان يعطل عمل الطبيبين ويشل منهما الحركة ويفوّت عليهما العلاج الذي كان يمكن ان يتقدما به ، هذه هي الصعوبة الثانية التي اعترضت بروير وفرويد في عملهما

واما الصعوبة الثالثة — ثالثة الاثافي — تلك التي قضت على بروير ان يخرج من هذا الميدان خروجاً لا رجعة فيه فهي هذه — عند ما ينام المريض ويتحلل من قيود الشعور Consciousness يطلق لنفسه العنان فيذكر بعض الحوادث التي كانت السبب الاصلي في ظهور العقدة او المرض ، تقول بعد ان يسرد هذه الاسباب سرداً مستطيلاً ذاكراً بعض التفاصيل التي كان يتردّد من غير شك في ذكرها فيما لو كان مالكاً لوعيه ، بعد ان يفعل كل هذا ويكشف عن العلة في مرضه وبعد ان يشفى او يكاد ، بعد هذا كله اكتشف بروير انهُ في معظم الحالات تتركز عاطفة المريض في الطبيب نفسه ، ويصبح عاشقاً له معتمداً عليه ، مبالاً اليه ، او كارهاً لهُ مغيظاً منهُ — وبعبارة اخرى تتوجه عواطف المريض نحو الطبيب توجهاً غزيراً فياضاً متدفقاً يكاد يغرقهُ ويسد عليه منافذ العمل والحركة ، فكأن المريض قد شفي من مرض نفسي ليتردى في مرض آخر ، وكأنهُ تخلص من عقدة ليقع في غيرها ، فبعد ان كان موزّع النفس، مشتتها ، او في حرب مع نفسه او مع الجماعة ، اصبحت كل قوى نفسه متجهة الى الطبيب ، واصبح الطبيب ذاته هو المرض

هذه الظاهرة الغريبة ، هي ظاهرة نفسية بالطبع ، هي فرع من المرض النفسي يستدعي ان يستقصيه الباحث ، وينقب فيه علّهُ يتوصل الى فهمه وادراك كنهه ، فهذه ليست ظاهرة طبيعية يصح ان توجد في الانسان السليم العادي ، وانما هي في الواقع مظهر المرض او هي نوع آخر من المرض اذا لم يتحلل منهُ المريض فكأنهُ لم يعالج ولم يشف — هذا من ناحية

***

واما من الناحية الاخرى فهي مزلّة للطبيب محرجة له كل الاحراج ، متعبة لا يستطيع معها ان يلتفت لعمله كل الالتفات ، اذ ما هو شأن الطبيب في هذه المسألة حتى يصح فيجد نفسه موضع حب ملتهب حار يتبعهُ كظله يسعى وراءهُ مصرّاً على تحقيق غايته ؟ امرأة متزوجة تذهب الى الطبيب لتعالج فتصبح محبة لهذا الطبيب مفتونة به ، هذا كثير على الطبيب لا يستطيع ان يحتمله ، وهذا بالفعل ما حدث لبروير فاضطرّ ان يفرّ من هذا الميدان لانهُ ميدان خطر حافلٌ بالمفاجآت التي لا يستطيع ان يحسب لها حسابها ، والتي تزمع ان تتصل باعماله فتفسدها ، فليس من مصلحة الطبيب ان يكون موضع افتتان النساء اللاتي يعالجهنّ

الى هنا وانتهت قصة بروير ، فعند هذه النقطة انقطع بروير عن ممارسة علاج الامراض العصبية بطريقة التحليل النفساني ، ومن هذه النقطة استأنف فرويد العمل بمفرده فاستقامت له الزعامة في

هذا الميدان وتتلمذ عليه كثيرون وأسس مدرسة التحليل النفساني كما هي معروفة في وقتنا الحاضر وهي مدرسة حديثة قوية لها اتباع اقوياء نشروا مبادئها في كل صقع ، ودخلوا بها الى معظم الجامعات الكبيرة في الدنيا ، فالفرويدية مذهب في التحليل النفساني يتمسك به كثير من علماء النفس ويدرسهُ ويبحث فيه جميع علماء النفس منهم من يؤمن بها كل الايمان ، ومنهم من يقاومها كل المقاومة ، ومنهم ايضاً من يبحث فيها بهدوء وعقل من غير ان يقيم وزناً للعاطفة او للميول

وليس هذا فقط ولكن تفرّع عن هذه المدرسة مدرستان اخريان ، اسسهما تلميذان لفرويد ، احداهما مدرسة ادلر والاخرى مدرسة يونج ، ولكل منهما قصة لذيذة يسع ان نسردها عند ما يأتي اوانها ، ولكل منهما نظرية اساسية ، يسع ان نشرحها في حينها ، ولكن من المستحسن هنا ان نقول ان التحليل النفساني Psychoanalysis عند بعض علماء النفس ، معناهُ فقط فرويد ومدرسته وعند البعض الآخر معناهُ فرويد وادلر ويونج ، هؤلاء الثلاثة مع ما بينهم من الفروقات الاساسية والاختلافات الجوهرية . فالسيكولوجية الاكاديمية تضع هؤلاء الثلاثة في موضع واحد وتحت باب واحد وهو التحليل النفساني ، واما الثلاثة انفسهم فلا يقبلون هذا الوضع لا بل يحاربونهُ ويثورون عليه ، ويريدون على الضد من ذلك ان يؤكدوا التباين في وجهات النظر بينهم

ويحسن بي هنا ان انبه الى اني شخصيًّا اتبع السيكولوجية الاكاديمية لاسباب مهمة سأذكرها في سياق الكلام ، ومن هذه الاسباب بالطبع ميلي الى وضع هذه المدارس الثلاث بعضها مع بعض لانها جميعاً تستعمل طريقة واحدة لا تتغير وان كانت لكل منها وجهات نظر خاصة بها في تفسير الظواهر النفسية التي تعرض لها

***

نستطيع ان ندعو التحليل النفساني سيكولوجية التصرف او السلوك ، وان كانت تختلف كل الاختلاف عن النظرية المسلكية التي شرحناها في عدة مقالات على صفحات هذه المجلة ، ولا ندعوها بهذا الاسم اعتباطاً او تعنتاً ولكننا راء ينطبق عليها من وجوه كثيرة — ذلك لان التحليل النفساني يعنى العناية كلها بدراسة سلوك المريض وتصرفاته ، ويحاول في نفس الوقت ان يرد هذه التصرفات الى دوافعها الاصلية

ويدعوها هم سيكولوجية الشعور Feeling Psychology ، ذلك لانها — في رأيهم على اقل تقدير — تبحث في المشاعر التي كانت السبب في ظهور الامراض العصبية ، تتعقد هذه المشاعر وتختلط في بعضها ، فتمرد لا تضع صاحبها في الوضع الصحيح فيما يختص بنفسه ، او تطغى بعضها على البعض وتتحكم بعضها في البعض فيفقد الانسان توازنه النفسي وتتسلط عليه بعض الامراض العصبية ، او قد تختلط نفسه وتتعقد مشاعره فلا يعود قادراً على وضع نفسه في وضعها الصحيح من هذا

النظام الاجتماعي الذي نعيش فيه فيصبح عاجزاً عن ان ينظر الى الناس كما ينبغي للانسان العادي ان ينظر ، او يضع نفسه بينهم بحيث لا يشعرون بخلاف جوهري بينهم وبينه ، ومن غير ان يكون هنالك شذوذ ظاهر وفرق في وجهات النظر الى الاشياء محسوس يجعلهم يتجنبونه لانه مغاير لجميع الناس العاديين

او يدعونها سيكلوجية الاعماق Depth Psychology لانها في رأيهم أيضاً تغوص في اعماق النفس البشرية ، وتتدس في اغوارها الداخلية فتقلبها ظهراً لبطن ، وتنشر خباياها وتمزق الحجب التي تحجبها عن اعين الناس وعن عيني المريض نفسه ، وهي تزعم بذلك ان تصرفات الانسان المريض او العادي منبعثة عن دوافع وبواعث تخفى في جميع الحالات عن الانسان نفسه ، فقد يظن الانسان انه يعرف الدوافع لتصرفاته ، والحال انه لا يمكنه ان يعرف ذلك ، لان واعيته اذا تولت الكشف عن تلك الدوافع لا تعمل شيئاً سوى انها تبرر التصرفات بأسباب واهية مفتعلة لا اصل لها ولا وجود ، وكل ما تفعله الواعية انها تتطوع بالتستر على اللاشعور او العقل الباطن ذلك الذي يملك دون سواه الاسباب الحقيقية للتصرفات ، ان شاء كشفها للدنيا وان شاء حجبها واستخدم الواعية في انتحال الاعذار واختراع الاسباب ، من هذا اطلق اصحاب هذا المذهب النفسي هذه التسمية على مذهبهم ، وهم يحبون ان يعرفوا به

وما قصدنا ان نطيل الوقوف عند الاسماء الا لانها من ناحية تساعدنا على فهم نظرية هذه المدرسة عند ما نتناولها بالشرح والتفصيل ومن ناحية اخرى اردنا ان نمهد لشرح النزاع القائم بين هذه المدرسة من علم النفس وبين المدارس الاخرى التي لا تتفق معها في وجهات النظر

***

ويحسن بنا في ختام هذا المقال ان نوجه نظر القارىء الى ان مدرسة التحليل النفساني لا ترى فائدة ولا نفعاً في السيكلوجية الاكاديمية التي تدرس في معظم جامعات الدنيا ، كما انها لا ترى نفعاً في دراسة سيكلوجية الحيوانات كما تفعل الجستالت Gestalt والنظرية السلوكية ، والسيكلوجية التجريبية على العموم ، ثم هي تحتقر المعامل السيكلوجية وترى انها عبث لاطائل تحته ولهو اطفال ، وانما هي تعنى بأعماق النفس وخباياها كما تزعم ، وترى ان معظم السيكلوجيات الاخرى لا تستطيع ان تلقي ضوءاً على هذه المسألة

***

هذه مقدمات نظرية التحليل النفساني ، اجملناها اجمالاً لضيق المجال ، وأما نظرية التحليل النفساني ذاتها ، وأما فرويد حجر الزاوية من هذه النظرية فسوف نعالجه مرة اخرى اذا سمحت الحال لنا بذلك